

«تاريخ الجزائر الثقافي» للمرحل الدكتور أبي القاسم سعد الله تأصيل لبانوراحا الثقافة الجزائرية بأطيفر فسيفسائية

بقلم: أ. مراد وزناحي¹

صحفي سابق، وكاتب سيناريو، وباحث في التاريخ

قصة كتاب نفيس

يتمثل كتاب «تاريخ الجزائر الثقافي» في سلسلة من المجلدات عددها أحد عشر كتابا حاليا. صدرت في أكثر من خمس طبعات أنيقة، منفصلة أجزاءها، وصادرة تباعا، أولاها كانت عن دار الغرب الإسلامي ببينروت سنة 1981، وجزؤها الأخير بالجزائر عن طريق دارعالم المعرفة (بدعم من وزارة الثقافة سنة 2015). وضمت هذه الموسوعة معلومات كثيرة ومعطيات غزيرة بخصوص الثقافة والمثقفين وإنتاجهم المتنوع في الجزائر منذ الفتح الإسلامي سنة 683م وإلى غاية دحر المحتل الفرنسي من الجزائر على

أيدي الثوار سنة 1962. أي أن الفترة التي غطاها «الكتاب الموسوعة» تفوق العشرة قرون بكثير، وبعده من الصفحات يفوق الخمسة آلاف وخمس مائة صفحة كاملة. وهنا، يبرز الجهد الهائل والوقت الضخم اللذين بذلتهما واستغرقهما المرحل د/ سعد الله من أجل جمع المادة من مختلف البلدان والمناطق والمواضع التي شد الرحال إليها، وتنقيحها وتصحيحها وغربلتها ومقارنتها وترجيحها وصياغتها. وعرف هذا الكتاب «الكنز» في الأوساط العلمية والإعلامية والثقافية على السواء بتسمية «معلمة تاريخ الجزائر الثقافي»، والتي صدرت بداية

الفترة العثمانية إلى غاية الاستقلال الوطني، وهي فترة تقارب الخمسة قرون. وللتدليل على أهمية هذا الكتاب الذي بين أيدينا، يجدر بنا التأكيد أولاً على أن الراحل كان سباقاً إلى اختيار موضوع البحث الذي لم يفكر فيه أحد من قبل، لا في وطنه ولا من أية دول أخرى. وثانياً، فإن مشروعاً بهذا الحجم والمستوى والعمق، كان من المفروض أن تتكفل به جهة ما أو مؤسسة رسمية أو هيئة علمية على غرار مراكز البحث والجامعات والوزارات وغيرها. لذلك، علينا الاعتراف له مسبقاً بالتميز والتفرد والتضحية، لا لشيء سوى لكون هذا البحث المعمق قد سد فراغاً رهيباً في تاريخ الجزائر والدول المجاورة لها، وفي تاريخ الجزائر الثقافي خاصة. وهو الجهد الذي يغنيننا عن البحث في هكذا موضوع مجدداً، ويوفر علينا الجهد والوقت معاً.

في عشر مجلدات فقط، تتحدد الفترة الزمنية المدروسة فيها ما بين سنة 1500م (عشية الدخول العثماني للجزائر) وسنة 1962 (عقب انتصار الثورة التحريرية الجزائرية على قوات المستعمر الفرنسي). غير أن المجاهد والراحل سعد الله كان يفكر أبعد من ذلك، ولم يكتف بالأجزاء العشرة من معلمته، وقرر العودة بتاريخ الجزائر الثقافي إلى ما قبل سنة 1500م، فكان له ذلك، حيث جدد العهد مع السفر من أجل القيام بأعمال البحث والتنقيب في طيات تلك المرحلة التاريخية الغامضة (قبل اليوم) والمتعلقة بالمرحلة الإسلامية، وتمكن قبل رحيله بأشهر قليلة فقط سنة 2014، من الوصول فيها إلى الفترة الممتدة ما بين الفتح الإسلامي إلى غاية الدخول العثماني.

وقبل ذلك الجزء الأخير (الفترة الإسلامية) كان كتب فيها عن تاريخ الثقافة والمثقفين في الجزائر من بداية

ميدان العلوم الإنسانية وغيرها من الفنون: فهو الشاعر والقاص والمؤرخ والناقد والمترجم والرحالة والصحفي والمحقق واللغوي، الذي أغنى مكتبات العالم بعلمه الوافر. أي أنه لم يكن مؤرخا وفقط، مثلما يظلمه بعضنا، عن حسن نية أحيانا، بل كان عالما موسوعيا بأتم معنى الكلمة، وتمكن من تأليف عشرات الكتب والمجلدات والمؤلفات والمقالات المتنوعة.

-عائش الدكتور سعد الله، وعن كُتب، عددا هاما من الشخصيات العلمية والثقافية والتاريخية، الوطنية والعالمية. فآثر فيها وتأثر بها. كما تعرف على شخصيات أخرى صنعت لنفسها اسما في تخصص ومجال نشاط كل منها. ومعلوم أن الدكتور سعد الله كان قريبا من الإصلاح الزاهد والشهيد الشيخ العربي التبسي³ الذي اختطف سنة 1957 بالعاصمة من قبل قوات العدو الفرنسي، دون أن نسمع عنه خبرا منذ ذلك التاريخ، وهو أحد

سيرة زاهد اعتذر عن تولي الوزارة والسفارة والإدارة.. لأجل العلم!

- هو مناضل ومؤرخ ومفكر جزائري، ولد بوادي سوف في الجنوب الجزائري سنة 1930، حفظ القرآن الكريم بالكتاب، ثم تخرج من جامع الزيتونة بتونس، ودارالعلوم بالقاهرة، وجامعة مينيسوتا بأمريكا، ودرّس في الجزائر وفي عدد من جامعات العالم. ويعد الراحل أول باحث جزائري يحرز درجة الدكتوراه في التاريخ سنة 1965، بفضل الشهادة التي عاد بها من الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1967 إلى الجزائر، حينما قرر العودة إلى الديار والاستقرار بها نهائيا، رافضا حمل الجنسية الأمريكية التي عرضت عليه يومها².

-أقن الرجل لغات عالمية كثيرة هي: الانجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية، علاوة عن العربية. جمع الرجل بين مجالات عديدة في

-يعتبر الراحل من الجزائريين القلائل الذين جمعوا بين الكفاءة العلمية والإنتاج المعرفي والجهاد في سبيل تحرير الوطن من الاستعمار الفرنسي. وهو المنضم إلى جبهة التحرير الوطني بالقاهرة سنة 1955، بينما كان ما يزال طالبا بإحدى جامعاتها، وناضل دفاعا عن القضية الوطنية في إطار الحركة الطلابية الجزائرية بكل من تونس ومصر وأمريكا. وكان كتب شعرا ثوريا حتى قبل اندلاع الثورة الجزائرية. كما ساهم في رد العدوان الثلاثي على الشقيقة مصر سنة 1956. كما شارك بقلمه شاعرا وناقدا في جريدة «البصائر» لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكتب فيها «رسالة القاهرة».

-حضر الراحل حدثا تاريخيا هاما عندما كانت الجزائر تعتبر لدى الفرنسيين بمثابة «مستعمرة»، يتمثل في الإعلان الرسمي عن تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية

الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وكان سعد الله ملازما للعلامة الفصيح الشيخ محمد البشير الإبراهيمي⁴، الذي أطلق عليه لقب «سعد السعود». كما تعرف إلى الأمير عبد الكريم الخطابي، المغربي، والعربي الثائر. وتعرف إلى المجاهد والوزير الأول بلعيد عبد السلام. ولازم الشاعر الفذ محمد العيد آل خليفة، ورافق الأستاذ والمناضل المرحوم عبد الحميد مهري. ولازم عددا من الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين الذين كان يتذكرهم في كل مرة ويذكرهم بخير، ومنهم: د/ عبد الله الركبي، د/ أبو العيد دودو، د/ يحي بوعزيز، والقائمة طويلة.

- كان الراحل عضوا مراسلا «بمجمع اللغة العربية بالقاهرة» لسنوات عديدة، وكان صاحب نشاط وقوة اقتراح، وذا دور فعال في تلك الهيئة التي مثل الجزائر فيها رفقة زميله د/ عمار الطالبي.

الرجل ذلك في سبيل التضحية من أجل العلم، وعدم الاشتغال عنه بغيره، أي أن زهده في المناصب كان من زهده في الدنيا. لذلك، وبموجب حبه للبحث والتنقيب، وجدناه يعتذر عن تولي «الإدارة والوزارة والسفارة»، وهو الوصف الذي حق لنا أن نلحقه به.

- توفي رحمة الله عليه يوم 14/12/2013 بالجزائر العاصمة، بعدما اشتد عليه المرض. وتفاعل مع رحيله العالم كله وليس الجزائر فقط. وحضرت جنازته التي أوصى بأن تكون شعبية، جموع كبيرة جدا، ودفن بمسقط رأسه في بلدية قمار بالوادي حسب وصيته التي نفذت بحذافيرها من طرف ذويه.

تسمية أحبها هو.. «موسوعة الجزائر الثقافية»

«ولو طلب إلي أن اختار تسمية جديدة لهذا الكتاب لاخترت له اسم (الموسوعة الثقافية الجزائرية)، ذلك أن أجزاءه الجديدة تضي عليه هذا

بالقاهرة، شهر سبتمبر من سنة 1958، وهي الهيئة التي احتك ببعض قادتها ووزرائها. كما أنه عمل بإحدى مصالحها لوقت طويل.

- لا يوجد باحث جزائري آخر، من غير الراحل، كان نشاطه حثيثا ومتنوعا وبأماكن عدة بنفس الآن. حيث حاضر وناقش وأشرف على رسائل جامعية، ودرّس في عدد من الجامعات الكبرى في العالم، بأمريكا والأردن وغيرهما كثير، وتشرف بعضوية الكثير من المجالس والهيئات العلمية، وسبقه كبير في مجالات البحث، وقلم سيال مسير للعصر والراهن باقتدار، وصاحب فلسفة (مدرسة) في تدوين التاريخ.

- عرضت على الراحل مناصب المسؤولية مرارا، لكنه اعتذر عن توليها بلطف ولين، ليس تكبرا، فالعالم كله يشهد له بالتواضع وحسن الخلق وحب الوطن وأبناء الوطن والعروبة والإسلام والإنسانية جمعاء. لقد فعل

ويشير الراحل في موضع آخر إلى أن النهضة الوطنية حين بدأت في الجزائر كان مثقفوها غالبا من خريجي المدارس الفرنسية الذين لم يكن يربطهم بماضي الجزائر سوى الدين وبعض التقاليد والذكريات الشعبية. وقد كان هدفهم الأساسي هو التحرر، ولم يكن الكشف عن دور الجزائر الثقافي جزءا من برنامجهم. بل إن حركة ابن باديس التي ركزت على الجانب الثقافي بقدر من النهضة الوطنية، لم تعتن في مدارسها بتاريخ العرب والإسلام عموما. ومرد ذلك بدون شك إلى ندرة المصادر وقلة الباحثين المتخصصين في هذا الموضوع.. (باستثناء جهود المرحومين الشيخ مبارك المليي والشيخ أحمد توفيق المدني).

انتقاد وافتخار.. بالثقافة الجزائرية في العهد العثماني

وبما أن الكتاب يتطرق عبر أجزاء عديدة إلى فترة الوجود العثماني بالجزائر، فإن سعد الله تحدث عن

الطابع عن جدارة. ومع ذلك فاني سأبقى على العنوان الأصلي، فهو الذي عرف به في معظم مكتبات العالم». بهذه العبارات يتحدث د/ سعد الله عن الكتاب. ويضيف أن الأخير هو ثمرة جهود دامت حوالي ربع قرن. وكتب عنه الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1960 بكونه مشغوف إلى حد الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور. وأن هدفه من البحث هو إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور. ذلك أن المستعمرين الفرنسيين قد بثوا طيلة احتلالهم للجزائر بأنه لم يكن لأهلها ماض سياسي ولا ثقافي، وزاد إهمال الدارسين العرب والمسلمين لتاريخ الجزائر من حرص على البحث والتنقيب. فالجزائر قد ظلمها أعداؤها وأشقاؤها على السواء، «وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء».

ووفرة الكتب. ثم شهد القرن الموالي حركة قوية في صفوف العلماء والعناية بالتعليم وكثرة التأليف، بفضل مساهمة بعض البايات أمثال صالح باي والحاج محمد الكبير. وظهر علماء كبار مثل ابن سحنون وأبوراس وابن العنابي الذين اهتموا بالعالم الخارجي للجزائر.

مشيرا إلى سيطرة عدد من الظواهر على الحياة الثقافية في العهد العثماني، من أهمها انتشار التصوف والدروشة وشيوع الشروح والحواشي على أعمال المتقدمين والثقافة الموسوعية والحفظ وتقديس أعمال السابقين. غير أنه يتدارك بالاعتراف بأن الثقافة في العهد العثماني كانت عربية إسلامية في صميمها، المشتركة والشائعة عندئذ في العالم الإسلامي، فمناهج التعليم كانت واحدة وحدود الأفكار واحدة، ومعاهد العلم التي ارتادها علماء الجزائر متشابهة والطرق الصوفية هي هي سواء أخذوها في المغرب الأقصى أو

حكام هذه الفترة وقال إنهم كانوا يوصفون من طرف الكتاب الجزائريين بالحكام الأتراك والأعاجم والعلاج لكونهم-الحكام-كانوا من خارج الجزائر وكان أغلبهم لا يتكلم إلا التركية وكانوا من أصول مختلفة (تركية، يونانية، ألبانية، إيطالية، الخ). ثم يعدد الراحل مزايا الحكم العثماني في الجزائر وحسناته كما يورد مساوئه وسلبياته في مجالات الحكم والسياسة والثقافة والدين وشؤون المجتمع، مؤكدا على فكرة الجمود الثقافي التي يقول إنها كانت سائدة خلال تلك المرحلة. ومع ذلك فهو يجد أن المخطط البياني للثقافة في الجزائر كان يسير في حالة اطراد وصعود. فبعد معاناة الثقافة في القرن السادس عشر الميلادي، والذي شهد هجرة العلماء الواسعة وكثرة الحروب، أخذت الحياة تدب فيها في القرن الموالي بفضل استقرار الأوضاع السياسية وازدهار الحياة الاقتصادية وتوارد العلماء المسلمين على الجزائر

وابن زكري والقسنطيني وأبو عصيدة
والملياني وعمر الوزان وسعيد قدورة
وسعيد المقرئ وعبد الكريم الفكون
وغيرهم كثير.

ويواصل في الجزء الثاني (1500 -
1830) نفس المهمة، بعرض واف لعدد
من العلوم، الشرعية مثلاً، والتي يقول
إنها كانت تمتاز في الغالب بالتقليد
أكثر من التجديد، وبرز ذلك لدى
بعض العلماء في التفسير والقراءات
وعلم الحديث والإثبات والإجازات
والفقه والنوازل والفتاوى وعلم
الكلام والتصوف والمواعظ والردود
والمنطق وغيرها. ثم يعرج بالحديث
عن علوم اللغة والنثر الفني كالخطابة
 وأنواع الشعر والوصف والرسائل
والعقود والألغاز والتاريخ والتراجم
والرحلات والفنون والعلوم، كالحساب
والفلك والطب والجراحة والصيدلة
والموسيقى والغناء والعمارة والخط
والرسم. ويسرد أعمال وسير عدد من
الأسماء البارزة في ذلك كله على غرار

في العراق.. وأن على الجزائري التباهي
بكونه قد أسهم بهذا الإنتاج في حركة
المد التاريخي والحضاري للأمة العربية
الإسلامية.

ويتطرق الكتاب في جزئه الأول
(1500 - 1830) إلى مسائل عديدة
ومتشعبة تخص حياة المثقفين
وإنتاجهم في الفترة المذكورة بالجزائر،
مثل الأدب واللغة والتصوف وعلم
الكلام والمنطق والعلوم وعلوم الدين
ودور المدن والحياة الدينية والفنية
والمساجد والأوقاف والزوايا والرباطات
والمدارس والمعاهد العليا والمكتبات
وسياسة التعليم ووسائله ومكانة
العلماء ووظائفهم وتنافسهم وميزاتهم
وعلاقتهم بالحكام وهجرتهم وتعليم
المرأة والمواد المدروسة وأجور المعلمين
وغيرها. كما يشير إلى كم هائل من
أسماء العلماء الذين لم نكن نسمع
سوى القليل عنهم، ممن طرّقوا أبواب
المواضيع والقضايا سألقة الذكر، من
أمثال: النقاوسي والحوضي والثعالبي

مثل الشيخ الونيسي وبوجمعة وابن مرزوق. وافرد حيزا للتعليم المزدوج والمعاهد والتعليم المهني وتعليم المرأة والفنون التقليدية والتعليم الفرنسي. ويقر الراحل سعد الله بكونه درس في هذا الجزء مساهمات الفرنسيين والجزائريين معا. ذلك أن دراسات الفرنسيين للفن واللغة والآثار والطرق الصوفية وغيرها، داخلة في صميم هذا الموضوع الثقافي. وهي أعمال المستشرقين والمترجمين والمؤرخين والفنانين الفرنسيين التي كانت مستوحاة من تراث الجزائر محاولين توجيها نحو وجهة تخدم المصالح الفرنسية. وهنا يكمن الفرق الشاسع بين الفرنسيين والعثمانيين. فهؤلاء لم يكتبوا عن الثقافة الجزائرية بل تركوا الأمر لأهل البلاد أنفسهم، بينما اهتم الفرنسيون بشؤون الثقافة وزحزحوا عنها علماء وأدباء البلاد. وغطى الكتاب أيضا دور المهاجرين الجزائريين في المشرق والمغرب في مجالات الصحافة

عبد الرزاق بن حمادوش والورتلاني وابن علي وأحمد بن عمار وأحمد البوني وغيرهم كثير. علما وأن المجلدين الأول والثاني طبعا معا سنة 1981 و1985.

الجزائريون في مواجهة المصالح الثقافية الفرنسية

ويواصل في الجزء الثالث على نفس المنوال من السرد والتحليل، ولكن خلال فترة أخرى جديدة ومختلفة، وهي فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر ولكن قبل اندلاع الثورة التحريرية (1830 - 1954)، وهي المرحلة التي خصص لها الرجل بقية الكتب إلى غاية الجزء الثامن.

وغطى الجزء الثالث هذا مختلف العلوم والفنون والآداب والتعليم في المدارس القرآنية والمساجد، وأعيان المدرسين بالعاصمة مثل القديري والارناؤوط وبوقندورة والعمالي وابن الحفاف وكمال بن الخوجة وابن الشيخ وابن سماية وابن زكري، والتعليم بغرب البلاد وشرقها وجنوبها، ورواده

المساجد، وتجربة المجالس القضائية، ومسألة تدوين الفقه الإسلامي، والعرائض التي كان يكتبها الشيخ المكي ابن باديس (جد الشيخ عبد الحميد بن باديس)، ومقدما لنماذج من القضاة مثل ابن المختار وابن الحاج موسى والزهار وبرهيمات والأشرف وغيرهم.

وجاء الجزء الخامس ثريا بمادة متنوعة، مخصصا للمعالم الإسلامية على رأسها المساجد ومصيرها والموجود منها بالعاصمة ووهران وقسنطينة ومنطقة الوسط، والأضرحة والزوايا وأموال الوقف والمساعدات الخيرية وجمعيات الإغاثة، ثم المنشآت والمراكز الثقافية كالصحافة الفرنسية والعربية وروادها، كعمر بن قنبر وعمر راسم وأبو اليقظان، ثم الإذاعة والسينما والمطابع والجمعيات والنوادي الثقافية، ومصير المخطوطات، والمكتبة الوطنية والمكتبة الجامعية والمكتبات العسكرية والمكتبات الخاصة، والنساخ والمكتبات البلدية

والسياسة والدين والأدب. فعلى الرغم من أن مساهمة الجزائريين كانت كبيرة جدا لدى العرب إلا أن بلادهم الأصلية خسرتهم. وكتب الراحل مقدمة الكتاب سنة 1996، وأهداه لأمه (هالي عبيدة) التي توفيت ولم يرها بسبب بعد المسافة أثناء وجوده بأمريكا في تلك الفترة بسبب هذا العمل، ولم تقبل الوالدة الكتاب، كما اعتادت أن تفعل، ما حز في نفسه كثيرا.

أما الجزء الرابع، فجعله للحديث المفصل عن الطرق الصوفية، وأهم المصطلحات والتعاريف المستعملة فيها وعنها، وقام بالتأريخ لحوالي ستة وعشرين طريقة صوفية في الجزائر، متحدثا عن علاقتها بالمقاومة الشعبية وبالسياسة، وعن محاولة توظيفها وتدجينها من طرف المستعمر الفرنسي. وقدم إحصائيات وأرقام تخصها وقتذاك. فيما تحدث أيضا عن السلوك الديني والقضائي، ورجال الدين وعلاقتهم بالسياسة، وتصنيف

والمدرسية، والمسرح والموسيقى بأنواعها وآلاتها وأراء عدد من المستشرقين فيها، وأهم روادها مثل محي الدين باش تارزي ومحمد بن علي سفنجة ورشيد القسنطيني وغيرهم. وختم الكتاب بالحديث عن هجرة الجزائريين نحو المشرق والمغرب وبعض الدول الأخرى، وعن ثلة من أعيان الجزائريهناك، وعن عائلة الأمير عبد القادر بالمشرق وزيارة الشيخ محمد عبده، وإحصاء لبعض الجمعيات والجرائد والأحداث الثقافية.

ووردت في الجزء السادس تفاصيل وافية حول عوالم الاستشراق ومراحله وإنتاج رواده بالجزائر وحياتهم وكذلك بالنسبة للمستعربين، والهيئات العلمية ولجنة الاكتشاف العلمي ولجنة الاحتفال بمئوية احتلال الجزائر (1930)، والمعاهد الجامعية والجمعيات المتخصصة ومشاركة المثقفين الجزائريين في البعثات العلمية، ودور الكنيسة ونشاطها

التنصيري ورواده مثل دوبوش وباقي ولافيجري ودي فوكو، ونشأة الأسقفية. إضافة إلى مجال الترجمة وظهور النخبة الاندماجية والمترجمون الجزائريون ومترجمو الحملة الفرنسية على الجزائر والترجمة إلى العربية، وفكرة معهد العالم العربي وأسر الأطفال وحملهم إلى فرنسا، ونماذج من المثقفين الاندماجين والدعاة الأوائل للتعليم باللغة الفرنسية. ولم ينس البروفيسور سعد الله الإدلاء بدلوه بخصوص الموقف من الاحتلال ومختلف أراء منظرّي الاستعمار، وسياسات فرنسا الجهنمية على المستوى الاجتماعي والثقافي مثل «فرق تسد». ومعاداة العرب التي يقابلها معاداة البربر والتآمر على منطقة زواوة بالقبائل والاندماج والتجنس والنخبة. وتكلم عن الجزائر في الكتابات الفرنسية، وعن اليهودية والصهيونية والماسونية والمثالية والاشتراكية والإسلام ووحدة الأديان.

هل تملك الثورة الجزائرية إيديولوجية؟

وجاء الجزء الثامن، الأخير من السلسلة، مخصصا لفترة ما قبل الثورة (1830 - 1954). وجعله الراحل د/ سعد الله لمجالات اللغة والنثر الأدبي والشعر والفنون. ووردت في تفاصيل الكتاب حالة الأدب والثقافة غداة الاستقلال والتعامل مع اللغة والدراسات البربرية التي ظهرت وقتها نتيجة لما يعرف بالسياسة الفرنسية البربرية، وتقسيم السكان إلى عرب وبربر حتى تعلو كلمة الفرنسيين وحدهم، فيما اهتم العدو الفرنسي بالعربية ولهجاتها لحاجته إلى فهم الشعب الجزائري والاتصال به والتعامل معه. علاوة على الدراسات النحوية والمعاجم (عند بلقاسم بن سديرة وعمر بوليفة)، وكذا النثر الأدبي والمقالة الصحفية، ودراسة الأسلوب عند عاشور الخنقي والإمام الإبراهيمي، والرسائل والتقارير والخطابة (لدى محمد الصالح بن مهنه وأبي يعلى الزواوي)، والروايات

وضم الجزء السابع معلومات أخرى بخصوص العلوم الدينية والتصوف، وزود القارئ بمعلومات جديدة عن مؤلفين وباحثين وأدباء ومفكرين آخرين. والجميل فيه هو تطرقه لبعض العلوم التجريبية كالطب والتقاليد وممارسات الطب في عدد من المناطق الجزائرية مثل الاوراس، يضاف إليها ما أسماه هو بالطب السحري والخرافي، وبعض المؤلفات الخاصة بالطب والصحة ورواد هذا المجال على غرار بلعربي ومرسلي وابن التهامي. وتحدث عن مدرستي الطب والعلوم، كالفلك والحساب وعلوم أخرى كثيرة. فيما خصص الفصل الأخير من الجزء لمجالات التاريخ، بما فيه التاريخ المحلي، لعدد من المناطق بالوطن، وكذا التراجم والرحلات والمذكرات وأهم العلماء فيها.

ودبلوماسيتها ومعاركها معروف عن الراحل سعد الله عدم خوضه في القضايا السياسية والدبلوماسية والعسكرية المتعلقة بمرحلة الثورة التحريرية الجزائرية (1954 - 1962)، لاعتباره أن الوقت لم يحن بعد لذلك، مفضلا الاهتمام بمراحل تاريخية سابقة بالجزائر، ربما لعدم توفر الوثيقة التاريخية ولقرب تلك المرحلة منا. لكن الجانب الثقافي من تلك الحقبة جلبه إليه فاهتم به وكتب عنه فأبدع أيما إبداع، بدليل الكم الهائل من المعلومات والشروحات الوافية الواردة في الجزء التاسع من الكتاب قيد الدراسة، بالرغم من اعتراف الرجل بصعوبة الكتابة عن الثورة، حتى في جانبها الثقافي. ونجد أن الكاتب خصص له أحد عشر فصلا كاملا، وقعت في 683 صفحة. ومن دون لف ولا دوران، يتهم د/ سعد الله بعض الأشخاص بالابتعاد عن المبادئ والشوايت التي انبنت عليها الثورة في

والقصص والمسرحيات المقامات وأدب العرائض والنداءات والنصائح، ودراسة الأدب والتحقيق لدى محمد بن أبي شنب والأدب باللغة الفرنسية، وتطور حركة الشعر بأنواعه مثل نموذج مبارك جلواح، والفنون التقليدية (الشعبية)، ونظرة الفنانين الفرنسيين للجزائر والشرق عامة، ودراسة أنموذج «فيلا عبد اللطيف» الشهيرة بالعاصمة، ومعارض الفنون الإسلامية والآثار الدينية والقصور والمباني الحضرية والمتاحف، ودراسة شخصية وإنتاج الفنان نصر الدين (إيتيان) ديني، والنقش والرسم والخطاطة وعمر رسم وأخوه محمد وآخرون، وتحليل مضمون المؤلفات التي درست المسرح ورواد التمثيل والموسيقى والغناء، وتحليل لإنتاج الموسيقار محمد إقربوشن الجزائري الأمازيغي.

تفضيل الكتابة عن التاريخ الثقافي للثورة بدل سياستها

لسان الرئيس الثاني للحكومة المؤقتة، بن يوسف بن خدة، الذي يعتقد أن الإجابة هي بنعم، وإن للثورة مبادئ وفلسفة وأفكار انبثقت عنها، لكنه يفرق بين مبادئ الشعب ومبادئ القادة. وتحدث عن الثقافة في الإعلام الرسمي وبرنامج طرابلس. ثم تطرق إلى مسألة الهوية والأدباء بالفرنسية، حيث تكلم عن النظام التربوي بالجزائر والإسلام وتعليم التاريخ، وأبعاد الهوية الثقافية، وعن رأي مالك بن نبي في كل من عبان رمضان وفرانس فانون، وعن اضطهاد المثقفين، وعن القومية العربية من خلال جريدة المجاهد، وأدباء اللغة الفرنسية (ديب وياسين ومعمري وفرعون وجبار).

ثم تناول الإعلام أثناء الثورة من صحافة وإذاعة وتلفزيون وإعلام فرنسي ومكاتب جبهة التحرير الوطني الإعلامية والفريق الوطني لكرة القدم وأعمال الوفد الخارجي والمسؤول السياسي. وقدم إحصائيات متنوعة حول التعليم والتنظيمات الطلابية

البداية (الانتماء الحضاري للعروبة والإسلام واللغة العربية)، خاصة بعد سنة 1956، وهو ما تفاقم بعد الاستقلال - حسب -، إذ يرى أن ذلك الالتزام قد حل محله لغة التشكيك والمساءلة والعلمانية المفرطة التي وصلت في نهاية المطاف إلى تبني الاشتراكية العلمية.. ولأسباب يحددها في الكتاب.

ويتحدث صاحب الموسوعة الخالدة عن الحالة الاقتصادية والإدارية والسياسية والاجتماعية، وعن جمعية العلماء المسلمين وبعثاتها، والكشافة الإسلامية والجمعيات والشؤون الإسلامية والحالة الثقافية والتعليم واللغة العربية عشية الثورة. ثم نجده يستفيض في الحديث عن الثقافة في نصوص الثورة من خلال بيان الفاتح من نوفمبر ومؤتمر الصومام والحكومة المؤقتة وتقرير لجنة صبيح ونصوص الطلبة، ثم يتساءل عما إذا كان للثورة أيديولوجيتها الخاصة؟ مجيباً على

العامة، مثل فهرس المؤسسات والمراكز الدينية والفنية والثقافية الواردة في السلسلة، وفهارس الأماكن والأشخاص والشعوب والقبائل والأقوام والأحزاب والجمعيات والمؤتمرات والكتب والدوريات والمجلات، حتى يسهل على القارئ مهمة البحث والتنقيب في طيات أجزاء الكتاب.

كتاب عن الفترة الإسلامية.. أمنية الشيخ تتحقق أخيراً

ليصدر آخر جزء من سلسلة «تاريخ الجزائر الثقافي» بعد فترة وجيزة من رحيله عن هذه الدنيا، يوم السبت 14/12/2013، وهو الجزء الذي تحدث فيه عن الثقافة والمثقفين وإنتاجهم بالجزائر منذ الفتح الإسلامي حتى عشية الدخول العثماني للجزائر (1500م)، وهي أبعد فترة غطتها السلسلة. كما أنه الجزء الذي تعب «صاحبنا» كثيراً من أجل إيجاد جهة تتكفل به أثناء فترة البحث والتنقيب عن وثائق مادته النادرة عبر عدد من

ونشاطها وإضرامها، بالجزائر والخارج. ولم يغفل الحديث عن المسرح والغناء والسينما والموسيقى والرسم والخطاطة والمتاحف، وعن أنواع النثر بما في ذلك المقالة ومسألة الفصحى والعامية والفرنسية والخطابة والترجمة والقصة والرواية. ثم عن الشعر وأنواعه ونماذج من الشعراء. وعن الدراسات التاريخية والفلسفية والرحلات والطب والصحة العامة. ثم عن متفرقات أخرى مثل الحج والسياسة والشباب وزيارة الوفود ومعهد فاروق وفرقة يوسف وهبي، ومواقف المثقفين الفرنسيين من الثورة، والمناضلة جميلة بوحيرد في السينما والأدب، والثورة في الشعر العربي والأدب العربي في أعين النقاد العرب ومسألة اللغة العربية، خاتماً الكتاب بجملة وثائق ورسائل.

وكعادة الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتب سابقة وأخرى لاحقة، فإنه خصص جزءاً كاملاً (العاشر) للفهارس

في بحر متلاطم الأمواج، باحثة عن طوق للنجاة، يسير بها إلى مرفئ آمن، ويجيها عن أسئلة الراهن جميعها، من نحن؟ من هو المثقف؟ ماذا نبتغي من الثقافة؟ ما علاقة الثقافة بالسياسة وبالاقتصاد؟ هل الثقافة ضرورية لحفظ كرامة المرء؟.. في ظل عولمة قاتلة لا مكان فيها للضعفاء ومجهولي النسب، و«شتاء عربي» يكاد يأتي على كل أخضر ويابس، وعلى ما تبقى لبعضنا من آثار وأطلال كانت تنشر فينا حيننا يبعث على العيش والافتخار. غير أن المحفّز والمبشّر بمستقبل واعد هو تلك الكتب التي تطبع والأجيال التي تقرأ، ودور النشر التي تتكاثر في اللحظة مرتين. فهل فعلا سيقراً الناس «موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي»، عساهم يروون ظمأهم بصفحات من نور؟ ليبقى الأكيد أن الجزائر خسرت بموت الراحل د/ سعد الله عالما موسوعيا لا وجود به الزمن مرتين.. يرحمه الله.

دول العالم، من مكتبات ومراكز بحث وجامعات وزوايا وغيرها. ويمكنني أن أشهد على ذلك ما دمت كنت رفيقه في تلك المرحلة الأخيرة من حياته، وكنا نسعى، بالتنقل والمراسلة، لدى عدد من الوزارات والهيئات لأجل التكفل بالمشروع، ولأهمية هذا الجزء، وكثرة مادته، فإننا سنؤجل الحديث عنه إلى مناسبة لاحقة حتى نفيه حقه كاملا دون نقصان. علما وأن الكتاب المذكور صدر عن وزارة الثقافة الجزائرية مؤخرا فقط عن طريق الناشر «عالم المعرفة» بالجزائر، في إطار ما سمي «بتكملة الأعمال الكاملة» للدكتور سعد الله. وكان ذلك في حلة بهية تسر القراء، ومضمون غزير يغري الباحثين والطلبة والمؤرخين. وكم كان الراحل يخشى أن تنطفئ الشمعة ولا يكتب هذا الجزء.. مثلما كان يصرح لي دوما. وها هي الأمنية تتحقق، ويلقى الشيخ ربه مرتاح البال والضمير معا، تاركا الثقافة الجزائرية الحالية تسبح

الهوامش:

- 1- مراد وزناجي من مواليد سنة 1971 بالعاصمة الجزائر، صحفي سابق، وكاتب سيناريو، وباحث في التاريخ. صدرت له عدة كتب في مجال التأليف والترجمة، حول المجتمع والسينما وتاريخ الجزائر، وعمل مستشارا تاريخيا في عدد من الأعمال السمعية البصرية، آخرها فيلم ومسلسل عبد الحميد بن باديس . يعد من تلاميذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، حيث عاش قريبا منه، وألف حوله كتابين اثنين هما: «حديث صريح مع د/ أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ»، صادر في ثلاث طبعات، وكتاب «مفهوم التاريخ عند د/ أبو القاسم سعد الله». كما درس حياة وإنتاج الراحل في مقالات علمية ومحاضرات وطنية ودولية عديدة.
- 2 - في تلك السنة، عانى الراحل كثيرا بعد المشاكل التي لقيها بخصوص الاعتراف بشهادته - الدكتوراه- علاوة على صعوبات أخرى واجهته من لدن بعض الأشخاص في الجامعة، من المنتمين إلى تيار معاكس، يقف ضد مسألة التعريب، يضاف إلى ذلك مشاكل أخرى واجهته مع قضية السكن.
- 3 - معروف عن الشيخ العربي التبسي رحمه الله كونه « شهيدا لا قبر له».
- 4 - هو الذي خلف الشيخ عبد الحميد بن باديس على رأس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد وفاة هذا الأخير سنة 1941، وكان له الدور الفاعل في التعريف بالقضية الجزائرية قبل وأثناء الثورة التحريرية.

